الجزء الرابع والعشرون

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٣٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

مثوى : مُقاما ؛ من ثوى بالمكان يثوى ثويًا وثواء : إذا أقام به ، والذى جاء بالصدق : هم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدّق به هم أتباعه ، أسوأ الذى عملوا : أى ما عملوه من المعاصى قبل الإسلام ، ويجزيهم أجرهم : أى يثيبهم على الطاعات التى فعلوها فى الدنيا .

obeikandl.com

المعنى الجملي

بعد أن ذكر فيما سلف بعض هنات المشركين ، و بعض مقابحهم وأعقبه بمثل يشرح حالهم — أردف ذلك بنوع آخر منها ، وهو أنهم يكذبون فيثبتون لله ولداً و يثبتون له شركاء ، و يكذّبون القائل الحق ، فيكذبون محمداً بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه ، و بعد أن ذكر وعيد هؤلاء أعقبه بوعد الذى جاء بالصدق ، ووعد المصدّقين له ، فذكر أن الله يؤتيهم من فضله الثواب و يمنع عنهم العقاب .

الإيضاح

(فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق) أى لا أحد يبلغ ظلمه ظلم من افترى على الله الكذب فجعل معه آلهة أخرى ، أو ادعى أن الملائكة بنات الله وهو أيضا كذّب بالحق الذى جاء به رسوله من دعاء الناس إلى التوحيد ، وأمرهم بالقيام بفرائض الشرع ونهيهم عن محرماته و إخبارهم بالبعث والنشور .

وفى قوله (إذ جاءه) بيان لأنهم كذبوا به من غير وقفة ولا إعمال روّية بتمييز بين حق و باطل كما يفعل أهل النَّصَفة فيما يسمعون .

و بعد أن ذكر حالهم أردفه بوعيدهم فقال :

(أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) أى أليس فى النار مأوى ومسكن لمن كفروا بالله وأبوا تصديق رسوله وامتنعوا عن اتباعه فيما يدعو إليه من التوحيد والشرائع التى أنزلها عليه .

وخلاصة هذا — ألا يكفيهم ذلك جزاء على أعمالهم .

و بعد أن ذكر حال المكذبين ووعيدهم أردفه بذكر الصادقين المصدقين ، ومدحهم على ما فعلوا فقال :

(والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) أى والذى جاء بالصدق

وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وصدّق به وهم أتباعه الذين نهجوا نهجه وساروا على طريقه — هم الذين اتقوا الله فوحدوه وبرئوا من الأوثان والأصنام وأدوا فرائضه واجتنبوا نواهيه، رجاء ثوابه وخوف عقابه .

ثم ذكر ما وعدهم به من ثواب عظيم ونعيم مقيم فقال :

(لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين) أى لهم من الكرامة عند ربهم ما تشتهيه أنفسهم وتقرّ به أعينهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وذلك جزاء من أحسن عملا، فأخلص لربه فى السر والنجوى، وراقبه فى أقواله وأفعاله، وعلم أنه محاسب على النقير والقطمير، والجليل والحقير .

ثم بين سبحانه ما هو الغاية لهم عند ربهم فقال :

(ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) وذلك أعظم ما يرجونه من دفع الضر عنهم؛ والنفس إذا علمت زوال المكروه عنها كان فى ذلك سرور ولذة لها تعدل السرور واللذة بجلب المنافع لها .

(ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) أى ويثيبهم بمحاسن أعمالهم ولا يجزيهم بمساويها، وقدّم تكفير السيئات على إعطاء الثواب، لأن دفع المضار أهم من جلب المسارّ .

وفى ذكر تكفير الأسوإ إشارة إلى استعظامهم للمعصية مطلقا لشدة خوفهم من الله، وإلى أن الحسن الذى يعملونه هو الأحسن عند الله لحسن إخلاصهم فيه .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ؟ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٤٠) .

شرح المفردات

بكاف عبده : أى يكفيه وعيد المشركين وكيدهم، الذين من دونه: هم الأصنام ، ذى انتقام : أى ممن عاداه وعادى رسوله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه يؤتى المؤمنين ما يشاءون فى الجنة ويكفر عنهم سيئاتهم — أردف ذلك ببيان أنه يكفيهم فى الدنيا ما أهمهم ، ولا يضيرهم مايخوفونهم به من غضب الأوثان والأصنام ، فإن الأمور كلها بيده تعالى ؛ فمن يضلله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له ، وهو ذو العزة المنتقم الجبار . ثم ذكر أن قول المشركين يخالف فعلهم ، فحين تسألهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ؟ وهم مع ذلك يعبدون غيره ، ثم سألهم سؤال تعجيز : هل ما تعبدونه من وثن أو صنم يستطيع أن يكشف ضرا أراده الله بأحد ، أو يمنع خيرا قدره الله لأحد ؟ إذا فالله حسبى وعليه أتوكل .

و بعد أن أعيته الحيلة فى أمرهم — أمره أن يقول لهم : اعملوا كما تشاءون ، وعلى نحو ما تحبون ، إنى عامل على طريقتى ؛ ويوم الحساب ترون المحق من المبطل ، ومن سيحل به العذاب المقيم الذى سيخزيه يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الإيضاح

(أليس الله بكاف عبده ؟) أى الله وحده هو الذى يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصايب والويلات ، ويعطيهم جميع المشتهيات ، والمراد أنه يكفى مَن عَبَدَه وتوكل عليه .

وأتى بالكلام على طريق الأسلوب الإنكارى للإشارة إلى كفايته تعالى على أبلغ وجه ، كأنها من الظهور بحيث لايتيسر لأحد أن ينكرها .

ثم رتب على ذلك ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(ويخوفونك بالذين من دونه) أى ويخوفك المشركون بغير الله من الأوثان والأصنام عبثا وباطلا ، لأن كل نفع أو ضر فلا يصل إلا بإرادته تعالى . وقد روى أنهم خوّفوا النبى صلى الله عليه وسلم مضرة الأوثان فقالوا : أتسبّ آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنّك أو تصيبنّك بسوء . وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العُزّى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادنها : أحذركها ياخالد ، فإن لها شدة لايقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العُزّى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس .

وفى الآية إيماء إلى أنه يكفى نبيه صلى الله عليه وسلم دينه ودنياه ، ويكفى أتباعه أيضا ، ويكفيهم شر الكافرين .

ونحو الآية قوله : « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ » وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ » .

ثم أبان شديد جهلهم لتوعدهم بما لايضر ولا ينفع فقال :

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يضلله الله لتدسيته نفسه وجبه للإثم والفسوق ومعصية الرسول ، فما له من هاد يهديه إلى الرشاد ويخلصه من الضلال .

(ومن يهد الله فما له من مضلّ) أى ومن يوفقه الله إلى أسباب السعادة بتزكية

نفسه وتحبيبها إلى صالح العمل ، فلا مضلّ له يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يغير سلوكه ، إذ لا رادّ لفعله ولا معارض لإرادته ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(أليس الله بعزيز ذى انتقام) أى الله عزيز لا يغالب ، ومنيع لا ينازع ولا يمانع، وذو انتقام من أعدائه لأوليائه ، فهو الذى لا يضام من استند إلى جنابه ، أو لجأ إلى بابه .

ثم أقام الدليل على غفلتهم وشديد جهلهم فى عبادتهم للأصنام والأوثان مع تفرده تعالى بالخالقية لكل شىء وعدم خلقها شيئا فقال :

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) أى إن هؤلاء المشركين يقرون بوجود الإله العالم الحكيم لوجود الدليل ، ووضوح السبيل الذى لا يمكن إنكاره ، فإذا هم سئلوا اعترفوا به ، وإذا كان كذلك فكيف ساغ لهم عبادة غير الخالق أو تشريك مخلوق مع خالقه فى العبادة ؟ وقد كانوا يذكرون بحسن العقول وكمال الفطنة ، ولكنهم لما قلدوا أسلافهم ، وأحسنوا الظن بهم ، هجروا ما يقتضيه العقل ، وعملوا بما هو محض الجهل .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يبكتهم ويوبخهم بعد هذا الاعتراف فقال :

(قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟) أى أخبرونى عن آلهتكم هذه ، هل تقدر على كشف ما أراده الله بى من الضر أو منع ما أراده لى من الخير ؟ وإذا لم تكن لها قدرة على شىء فلا ينبغى التعويل عليها ولا عبادتها ، بل نعبد الإله القادر الذى تكون عبادته كافية فى جلب السراء ودفع الضراء .

قال مقاتل: لما نزلت هذه الآية سألهم النبى صلى الله عليه وسلم فسكتوا . وقال غيره : قالوا لا تدفع شيئا من قدر الله ولكنها تشفع فنزل قوله :

(قل حسبى الله) فى جميع أمورى من جلب نفع أو دفع ضر ، فلا أخاف شيئا من أصنامكم التى تخوفوننى بها .

(عليه يتوكل المتوكلون) أى عليه لاعلى غيره يعتمد المآملون .

وفى الحديث « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل » .

وروى عن ابن عباس أنه قال: «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، و إذا سألت فاسأل الله ، و إذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، رُفعت الأقلام ، وجفّت الصحف ، واعمل لله بالشكر فى اليقين . واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » .

ونحو الآية قول هود عليه السلام : « إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَاتُنْظِرُونَ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » حين قال له قومه : « إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » .

ولما أورد عليهم الحجة التى لادافع لها ـ أمر رسوله أن يقول لهم على وجه التهديد:

(قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون. من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أى اعملوا على ما أنتم تعتقدون فى أنفسكم من القوة والشدة واجتهدوا فى أنواع مكركم وكيدكم فإنى عامل أيضا فى تقرير دينى والسعى فى نشره بين الناس ، فسوف تعلمون أن العذاب والخزى فى الدنيا يصيبنى أو يصيبكم ، فيظهر حينئذ أيّنا المبطل أنا أو أنتم ، ويحل علىّ العذاب المقيم الدائم فى الآخرة أو عليكم .

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ،
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللهُ يَتَوَفَّى
الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا
الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا
لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ
قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) .

المعنى الجملي

بعد أن حاجهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على وحدانيته تعالى — سلاه عن إصرارهم على الكفر الذى كان يعظم عليه وقعه كما قال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقال : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » وأزال عن قلبه الخوف فأعلمه أنه أنزل عليه الكتاب بالحق وأنه ليس عليه إلا إبلاغه ، فمن اهتدى فنفع ذلك عائد إليه ، ومن ضل فضير ضلاله عليه ، وما وُكل عليهم ليجبرهم على الهدى .

ثم ذكر أنه تعالى يقبض الأرواح حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بها ظاهرا وباطنا ، وظاهرا فقط حين النوم ؛ فيمسك الأولى ولا يردها إلى البدن ، ويرسل الثانية إلى البدن حين اليقظة ، وفى ذلك دلائل على القدرة لمن يتفكر ويتدبر .

ثم أبان أن هذه الأصنام التى اتخذت شفعاء لاتملك لنفسها شيئا ولا تعقل شيئا، فكيف تشفع ؟ و بعدئذ ذكر مقابحهم ومعايبهم وأنه إذا قيل لا إله إلا الله وحده ظهرت آثار النفرة فى وجوههم ، و إذا ذكرت الأصنام ظهرت علامات الفرح والسرور فيها ، وهذا منتهى الجهل والحمق الشديد .

الإيضاح

(إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق) أى إنا أنزلنا إليك القرآن بالحق لتبلغه للإنس والجن مبشرا برحمة الله ، ومنذرا بعقابه ، وفيه مناط مصالحهم فى معاشهم ومعادهم والهادى لهم إلى الصراط المستقيم .

(فمن اهتدى فلنفسه) أى فمن عمل بما فى الكتاب الذى أنزل عليك واتبعه فإنما يبغى الخير لنفسه ، إذ أكسبها رضا خالقها وفاز بالجنة ونجا من النار .

(ومن ضل فإنما يضل عليها) أى ومن حاد عن البيان الذى بيناه لك ، فضل عن الحجة ، فإنما يجور على نفسه ، وإليها يسوق العطب والهلاك ، لأنه يكسبها سخط الله وأليم عقابه فى دركات الجحيم « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(وما أنت عليهم بوكيل) أى وما أنت أيها الرسول برقيب على من أرسلت إليهم ترقب أعمالهم وتحفظ عليهم أفعالهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

ونحو الآية قوله : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » وقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ » .

ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته البالغة ، وصفته العجيبة فقال :

(الله يتوفى الأنفس حين موتها) أى الله هو الذى يقبض الأنفس حين انقضاء أجلها بالموت ، ويقطع تعلقها بالجسد تعلق المتصرف فيه .

(والتى لم تمت فى منامها) أى ويتوفى الأنفس التى لم يحضر أجلها ، فيقبضها عن التصرف فى الجسد مع بقاء الروح متصلة به .

(فيمسك التى قضى عليها الموت) أى فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى الجسد .

(ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) أى ويرسل النائمة إلى الجسد حين اليقظة إلى أجل مسمى هو وقت الموت .

روى عن ابن عباس أنه قال : إن فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس ، فالنفس التى بها العقل والتمييز ، والروح هى التى بها النفَس والتحريك ، فيتوفيان عند الموت ، وتتوفى النفس وحدها حين النوم .

وأخرج البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره (طرفه الذى يلى الجسد ويلى الجانب الأيمن) فإنه لايدرى ما خلَفه عليه ، ثم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى ، وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

وأخرج أحمد والبخارى وأبو داود وابن أبى شيبة عن أبى قتادة « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم ليلة الوادى : إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء » .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فقال : من يكلؤنا الليلة ؟ فقلت أنا ، فنام ونام الناس ونمت فلم نستيقظ إلا بحرّ الشمس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيها الناس إن هذه الأرواح عارية فى أجساد العباد ، فيقبضها الله إذا شاء ويرسلها إذا شاء » .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال :

obeikandi.com

العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء ولم يخطر على باله فتكون رؤياه كأخذ باليد ، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئا ! فقال علىّ كرم الله وجهه ، أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » فالله يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت وهى عنده سبحانه فى السماء فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهى الكاذبة ، لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبتها ، وأخبرتها بالأباطيل فكذبت فيها ، فعجب عمر من قوله رضى الله عنهما اهـ .

ومن هذا تعلم أن النفس علوية هبطت من المحل الأرفع ، وشغلت بتدبير منزلها فى ليلها ونهارها ، ولا تزال تنتظر العود إلى ذيّاك الحى ، فحين النوم تنتهز الفرصة ، فيحصل لها نوع توجه إلى عالم النور وتستعد لقبول بعض آثاره ، والاستضاءة بشىء من أنواره ؛ فمتى رأت وهى فى تلك الحال فاضت عليها أنواره فكانت الرؤيا صادقة، ومتى رأت وهى راجعة القهقرى إلى ما ابتليت به من تدبير منزل تحوم فيه شياطين الأوهام ، وتزدحم فيه أىّ ازدحام، كانت رؤياها كاذبة ، وهى فى كلتا الحالين متفاوتة على حسب الاستعداد ؛ والله ولى التوفيق ، ومنه الهداية لأقوم طريق .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر لآيات عظيمة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته لمن يتفكر فى طريق تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها عنها بانقطاع تصرفها حين الموت مع بقائها فى عالم آخر إلى أن يعيد الله الخلق ، وفى قطع تصرفها فى الظاهر فقط فى حال النوم ، ثم يرسلها حال اليقظة إلى انقضاء آجالها .

ثم أنكر على المشركين اتخاذ الأصنام شفعاء ، فقال :

(أم اتخذوا من دون الله شفعاء) أى بل اتخذ المشركون آلهتهم التى يعبدونها لتشفع لهم عند الله فى قضاء حاجاتهم ؟

وإجمال المعنى — إنه لاينبغى لهم ذلك ، إذ لايخطر على بال عاقل فائدة لهذا ، ومن ثم أمر رسوله أن يتهكم بهم ويحمقهم على ما يفعلون فقال :

(قل أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون) أى قل لهم أيها الرسول : أتتخذون شفعاء كما تزعمون ، ولو كانوا لايملكون لكم نفعا ، ولا يعقلون أنكم تعبدونهم .

ثم أمر رسوله أن يخبرهم أن الشفاعة لله وحده فقال :

(قل لله الشفاعة جميعا) فليس لأحد منها شىء إلا بإذنه لمن ارتضى كما قال : «مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ؟» وقال : «وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى» .

والخلاصة — إنه تعالى مالك الشفاعة كلها ، لايستطيع أحد شفاعة لديه إلا أن يكون المشفوع مرتضى والشفيع مأذونا له ، وكلاهما ليس بموفور هنا .

ثم بين العلة فى أن الشفاعة جميعا له فقال :

(له ملك السموات والأرض) أى له السلطان فى السموات والأرض ، وكل من فيهما ملك له ومنها ما تعبدون من دونه ، فاعبدوا مالك الملك كله الذى لايتصرف أحد فى شىء منه إلا بإذنه ورضاه .

(ثم إليه ترجعون) أى ثم إليه مصيركم بعد البعث وهو معاقبكم على إشراككم به سواه إن أنتم متم على هذه الحال .

وخلاصة ذلك — اعبدوا من يقدر على نفعكم فى الدنيا وعلى ضركم فيها ، وفى الآخرة بعد مماتكم يجازيكم بما قدمتم من عمل ، خيرا كان أو شرا .

ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الذى تقشعر منه الجلود خشية .

ثم ذكر هفوة من هفواتهم التى تصدر منهم ، وتدل على غفلة عظيمة وتناقض بين الاعتراف بالألوهية وإنكارها فقال :

(وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر

الذين من دونه إذا هم يستبشرون) الاشمئزاز أن يمتلئ القلب غيظا وغما ينقبض عنهما أديم الوجه كما يرى فى وجه العابس المحزون ، والاستبشار أن يمتلئ القلب سرورا فتنبسط له بشرة الوجه .

أى إنه إذا قيل لا إله فى الكون إلا الله وحده نفرت قلوب أولئك المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث والمعاد بعد الموت ، وإذا ذكرت الآلهة التى يدعونها من دون الله فقيل : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى؛ استبشروا وفرحوا لفرط افتتانهم بهم ونسيانهم حق الله تعالى .

قال ابن عباس فى الآية : اشمأزت قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة أبو جهل بن هشام والوليد بن عتبة وصفوان وأبى بن خلف .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » .

قال السيد الألوسى فى تفسيره ناعيا حال المسلمين اليوم : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التى وصف الله تعالى بها المشركين، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم توافق أهواءهم ومعتقداتهم فيهم ، ويعظمون من يحكى لهم ذلك ، وينقبضون من ذكر الله تعالى وحده ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه عز وجل ، وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله ، وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة وينسبونه إلى ما يكره ، وقد قلت يوما لرجل يستغيث فى شدة ببعض الأموات ، وينادى يا فلان أغثنى ، فقلت له: قل يا ألله فقد قال سبحانه : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فغضب وبلغنى أنه قال : فلان منكر على الأولياء ، وسمعت من بعضهم أنه قال : الولى أسرع إجابة من الله عز وجل ، وهذا من الكفر بمكان ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان اهـ .

قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤٨).

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد — أمر رسوله بالالتجاء إليه لما قاساه فى أمر دعوتهم من شديد مكابرتهم وعنادهم ، تسلية له ، وبيانا لأن سعيه مشكور ، وجِدّه معلوم لديه ، وتعليما لعباده أن يلجئوا إليه حين الشدة ، ويدعوه بأسمائه الحسنى ، ثم ذكر أحوالهم يوم القيامة حين يرون الشدائد والأهوال وما ينتظرهم من العذاب .

الإيضاح

(قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أى قل : يا ألله يامبدع السموات والأرض ، ويا عالم ماغاب عنا وما تشهده العيون والأبصار ، أنت تحكم بين عبادك فتفصل بينهم بالحق ، يوم تجمعهم لفصل القضاء فيما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا من القول فيك وفى عظمتك وسلطانك ، فتقضى بيننا و بين المشركين الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم ، وإذا ذكر مَنْ دونه استبشروا وفرحوا .

أخرج مسلم وأبو داود والبيهقى فى الأسماء والصفات عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته . اللهم ربَّ جبريل

وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

وروى أحمد عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمنا أن نقول : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت رب كل شىء وإله كل شىء ، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشركه ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما أو أجرّه إلى مسلم » . قال أبو عبد الرحمن رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن يقول ذلك حين يريد أن ينام .

وقال أبو بكر الصديق : « أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضطجعى من الليل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شىء ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، أو أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم» رواه الترمذى .

وبعد أن ذكر معتقداتهم الفاسدة ذكر فى وعيدهم أمورا :

(١) (ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أى ولو أن هؤلاء المشركين ملكوا كل ما فى الأرض من الأموال وملكوا مثله معه ، وقُبِلَ ذلك منهم يوم القيامة لافتدوا به أنفسهم من أهوال ذلك العذاب الشديد الذى سيعذبون به ، وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة آل عمران .

(٢) (وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) أى وظهر لهم من عذاب الله

الذى أعدّه لهم ما لم يكن فى حسبانهم ولم يحدثوا أنفسهم به .

وفى هذا وعيد عظيم لهم وتهديد بالغ غاية لاغاية وراءها .

قال مجاهد : عملوا أعمالا توهموا أنها حسنات فإذا هى سيئات ، وقال عكرمة ابن عمار : جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعا شديداً فقيل له : ماهذا الجزع ؟ قال أخاف آية من كتاب الله (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) فأنا أخشى أن يبدو لى مالم أكن أحتسب .

(٣) (وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وظهر لهم حين تعرض عليهم صحائف أعمالهم ما كانوا اجترحوه من السيئات وارتكبوه من الآثام وعلموا أنهم مجازون على النقير والقطمير ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، وأيقنوا أنهم مواقعوه لامحالة؛ لاستهزائهم بما كان ينذرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم .

فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى عن المشركين بعض هنواتهم الفاسدة — حكى عنهم هناة أخرى هى أنهم حين الوقوع فى الضر من فقر أو مرض يفزعون إلى الله ويلجئون إليه علما

منهم أنه لا دافع له إلا هو ، وإذا نالتهم بعض النعم من فضله زعموا أن ذلك بكسبهم ، وحسن صنيعهم ، وجميل تدبيرهم ، والحقيقة أن ما أوتوه إنما هو فتنة لهم واختبار لحالهم ، ليعلم أيشكرون على ماحباهم به من النعم أم يكفرون ، ولكن أكثرهم لايعلمون ذلك .

وما هذه المقالة ببدع منهم بل قالها كثير قبلهم فلم ينفعهم ذلك شيئا ، ثم ذكر أن بسط الرزق وتقتيره بيد الله يبسطه تارة ويقبضه أخرى ، وليس ذلك لسعة الحيلة وحسن التدبير وحدهما ، فإنا نرى كثيرا من العقلاء وأرباب التدبير المال وحسن تصريفه فى ضيق شديد ، وكثيراً من الجهلاء والحمق فى بحبوحة من العيش ورغد عظيم منه .

الإيضاح

(فإذا مس الإنسان ضر دعانا ، ثم إذا خوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون) أى إن أمر المشرك عجيب يدعو إلى الدهشة والحيرة ، فإذا هو أصيب بضر من فقر أو مرض جأر إلى الله واستعان به لكشف ذلك الضر عنه - وإذا تغيرت الحال ونال شيئا من الرخاء أو زال عنه ما به من العلة قال : إنما أوتيت هذا لعلمى بوجوه المكاسب وجدى واجتهادى ، أو لذهابى إلى الأطباء واهتمامى بالعلاج فلم أدخر دواء ناجحا إلا بذلت نفيس المال للحصول عليه .

وهذا منه تناقض عجيب ، ففى الحال الأولى يستغيث بربه ، وفى الحال الثانية ينسب السلامة إلى نفسه ويقطع صلتها عن المنعم بها الذى أوجدها وأرادها ، وفى الحق إن ما أعطيه من النعم إنما هو فتنة واختبار لحاله ، أيشكر أم يكفر ، أيطيع أم يعصى ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون أن ذلك استدراج من الله وامتحان لهم ؛ ومن ثم يقولون مايقولون ، ويدّعون من الدعاوى ما لايفقهون .

ثم بين أن هذه مقالة ليست وليدة أفكارهم بل سبقهم بها كثير ممن قبلهم فقال :

(قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى قد زعم مثل هذا الزعم وادعى مثل هذه الدعوى كثير ممن سبقهم من الأمم ، فلم يغن عنهم شيئا حين جاءهم أمر ربهم على تكذيبهم رسله واستهزائهم بهم ، ما كانوا يكسبون من متاع الدنيا ويجمعون من حطامها .

ثم ذكر ماهو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فأصابهم سيئات ما كسبوا) أى فحلّ بهم جزاء سيئات ما كسبوا من الأعمال ، فعوجلوا بالخزى فى الدنيا كالخسف الذى لحق بقارون ، والصاعقة التى نزلت بقوم لوط ، وسيصيبهم النكال الدائم فى الآخرة .

ثم أوعد سبحانه مشركى قومه على ماسينالهم فى الدنيا والآخرة فقال .

(والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا) أى والذين كفروا بالله من قومك وظلموا أنفسهم سيصيبهم أيضا وبال السيئات التى اكتسبوها ، كما أصاب الذين من قبلهم . فأصابهم القحط سبع سنين متوالية وقتل صناديدهم يوم بدر ، وأسر منهم العدد الكثير .

(وما هم بمعجزين) أى وما هم بفائتين الله هربا يوم القيامة ، بل مرجعهم إليه ويصنع بهم ما شاء من العقوبة .

ثم أقام الدليل على قدرة الله وعظيم حكمته فقال :

(أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟) أى أو لم ير هؤلاء المشركون أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويضيق على من يريد أخرى ، كما يشاهد من اختلاف الناس فى سعة الرزق وضيقه ، وليس ذلك لجهل فى الكاسب أو علم لديه ، فربما كان العاقل القادر ضيق الرزق ، والجاهل أو المريض ذا سعة وبسطة فى المال .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى هذا لدلالات لقوم يؤمنون بالله ويقرون بوحدانيته ، وهم الذين يعلمون أن الذى يفعل ذلك هو الله لاسواه .

وإنما خص المؤمنين بذلك ، لأنهم المنتفعون بالآيات ، المتفكرون فيها .

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) .

شرح المفردات

الإسراف : تجاوز الحد فى كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله فى إنفاق المال وتبذيره، والمراد هنا الإفراط فى المعاصى ، لاتقنطوا : أى لاتيأسوا ، والإنابة: الرجوع. والإسلام لله : الإخلاص له ، أحسن ما أنزل إليكم من ربكم : هو القرآن ، بغتة : أى فجأة ، ياحسرتا : أى ياحسرتى وندمى ، فرّطت : أى قصرت ، فى جنب الله : أى فى عبادته وطاعته ، لمن الساخرين : أى المستهزئين ، كرة : أى رجعة .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن وعيد الكافرين فيما سلف — أردفه بذكر رحمته وفضله على عباده المؤمنين بغفران ذنوبهم إذا هم تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا له العمل ، ليكون فى ذلك مطمع لهؤلاء الضالين ومنْبَهَةٌ لهم من ضلالهم .

أخرج ابن جرير وابن مرْدويْهِ عن ابن عباس أنه قال : إن أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان ودعا مع الله إلها آخر ، وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك فأنزل الله (قل ياعبادى) الآية .

الإيضاح

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) أى قل أيها الرسول للمؤمنين الذين أسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا حدود الله ، فارتكبوا محارمه وتركوا أوامره : لا تيأسوا من مغفرة الله ، فهو يغفر الذنوب جميعا لمن تاب إليه ولجأ إلى جنابه ، وإن كثرت وكانت كزبد البحر .

روى البخارى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل : « وَالَّذِينَ لاَيَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ » ونزل : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ».

والمراد من الآية الأولى قوله : « إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا » الآية.

وروى أحمد عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أحب

أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ » إلى آخر الآية ، فقال رجل يارسول الله فمن أشرك ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ألا ومن أشرك — ثلاث مرات » .

وروى أحمد أيضا عن عمرو بن عنبسة رضى الله عنه قال : « جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يتوكأ على عصا له فقال : يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات ، فهل يُغفر لى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ألست تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال بلى وأشهد أنك رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم قد غفر لك غدراتك وفجراتك » .

فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة والإخلاص فى العمل ، ولا يقنطنّ عبد من رحمة الله ، فإن باب الرحمة واسع كما قال : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » وقال : « وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وروى الطبرانى من طريق الشعبى عن شُتَيْر بن شَكَل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله « اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ » وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وإن أكثر آية فى القرآن فرجا فى سورة الغرف « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضا « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » فقال له مسروق : صدقت .

وبعد أن نهاهم عن القنوط أخبرهم بما يدفع ذلك ويرفعه ، فيحل الرجاء مكانه.

وجاء بما لا يبقى بعده شك ولا يخالج القلب عند سماعه ظن فقال :

(إن الله يغفر الذنوب جميعا) أى إن الله يغفر كل ذنب ، كائنا ما كان

إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو الشرك بقوله: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين فى رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الحافظين لسوء الظن بمن لايتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده، المتوجهين إليه فى طلب العفو، الملتجئين إليه فى مغفرة ذنوبهم.

ثم ذكر علة ذلك فقال:

(إنه هو الغفور الرحيم) بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد التوبة منها .

فمن أبى هذا التفضل العظيم، والعطاء الجسيم، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته — أولى بهم مما بشرهم الله به، فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن التبشير هو الذى جاءت به نصوص الكتاب، وهو المسلك الذى سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صح عنه من قوله: « يسّروا ولا تعسّروا، وبشروا ولا تنفروا » .

وبعد أن وعد سبحانه بالمغفرة أمر بشيئين:

(١) الإنابة إليه بقوله: (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) أى أيها الناس أنيبوا إلى ربكم بالتوبة، وارجعوا إليه بالطاعة، واستجيبوا إلى ما دعاكم إليه من توحيده وإفراد الألوهية له قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتجدوا نصيرا ولا معينا من عذابه النازل بكم.

(٢) اتباع الأحسن بقوله: (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون) أى واتبعوا ما أمركم به ربكم فى تنزيله، واجتنبوا ما نهاكم عنه فيه، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لاتعلمون به حتى يغشاكم، ولا يخفى ما فى هذا من تهديد ووعيد.

ولما خوفهم بالعذاب ذكر علة ذلك فقال:

(١) (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين) أى بادروا إلى العمل واحذروا أن تقول بعض الأنفس : ياحسرتى على تقصيرى فى طاعة الله ، وسخريتى واستهزائى بدين الله وكتابه، وبرسوله وبالمؤمنين.

(٢) (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) أى أو تقول : لو أن الله أرشدنى إلى دينه وطاعته ، لكنت ممن اتقى الله فترك الشرك والمعاصى .

(٣) (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) أى أو تقول حين رؤية العذاب : ليت لى رجعة إلى الدنيا فأكون من المهتدين المحسنين لعقيدتهم وأعمالهم .

وخلاصة ذلك — إن هذا المقصر تحسر على التفريط فى الطاعة ، وفقد الهداية ثم تمنى الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فات .

فأجابه سبحانه بقوله :

(بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) أى إنه لا فائدة من ذلك ، فقد جاءتك آياتى فى الدنيا على لسانى رسولى الذى أرسلته إليك وفى كتابى الذى يتلوه عليك ، ويذكرك بما فيه من وعد ووعيد ، وتبشير وإنذار فكذبت بها واستكبرت عن قبولها ، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويستن بسنتهم ويتبع منهاجهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) .

شرح المفردات

وجوههم مسودة : أى لما يظهر عليها من آثار الذل والحسرة ، والمثوى : المقام ، والمفازة : الظفر بالبغية على أتمّ وجه .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد المشركين فيما سلف بما سيكون لهم من الأهوال يوم القيامة ، ووعد المتقين بما يمنحهم من الفوز والنعيم فى ذلك اليوم — أردف ذلك بذكر حال لكل منهما تبدو للعيان ، ويشاهدها كل إنسان ، يوم العرض والحساب .

الإيضاح

(ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) أى وترى أيها الرسول يوم القيامة وجوه الذين كذبوا على الله ، فزعموا أن له ولداً وأن له شريكا وعبدوا آلهة من دونه — مجللة بالسواد ، لما أحاط بها من الكآبة والحزن الذى علاها ، والغم الذى لحقها .

ثم علل هذا وأكده بقوله :

(أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين) أى أليست النار كافية لهم سجنا وموئلا ، ولهم فيها الخزى والهوان بسبب تكبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم معنى الكبر فقال : « هو سفه الحق وغمص (احتقار) الناس » وفى حديث عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم « يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذرّ ، يلحقهم الصّغار حتى يؤتى بهم إلى سجن جهنم » .

(وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم) أى وينجى الله من عذاب جهنم الذين اتقوا الشرك والمعاصى وينيلهم ما يبتغون ، ويعطيهم فوق ما كانوا يؤملون .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير هذه الآية من حديث أبي هريرة قال : « يحشر الله مع كل امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه فى أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رُعْبٌ أو خوف قال له : لا تُرَعْ فما أنت بالمراد به ولا أنت المعنىّ به ، فإذا كثر ذلك عليه ، قال فما أحسنك ؟ فمن أنت ؟ فيقول أما تعرفنى ؟ أنا عملك الصالح ، حملْتنى على ثقلى ، فوالله لأحملنك ولأدفعن عنك ، فهى التى قال الله: « وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

ثم بين هذه المفازة فقال :

(لايمسهم السوء ولا هم يحزنون) أى لايمسهم أذى جهنم ولا يحزنون على ما فاتهم من مآرب الدنيا ، إذ هم قد صاروا إلى ما هو خير منه ، نعيم مقيم ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوان من الله أكبر .

وخلاصة ذلك — إنهم أمنوا من كل فزع ، وبعدوا من كل شر ، وفازوا بكل خير .

اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) .

شرح المفردات

وكيل : أى قيّم بالحفظ والحراسة فيتولى التصرف على حسب الحكمة والمصلحة ، مقاليد : أى مفاتيح لفظ فارسى معرّب ، واحده إقليد معرب إكليد جمع جمعا شاذا ، ليحبطن عملك : أى ليذهبن هباء ولا يكون له أثر ، وما قدروا الله حق قدره : أى ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذى يليق به ، والقبضة : المرة من القبض وتطلق على المقدار المقبوض ، بيمينه : أى بقدرته .

المعنى الجملى

بعد أن بسط الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك — عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والوحدانية ، ثم انتقل إلى النعى على الكافرين فى أمرهم لرسوله بعبادة الأوثان والأصنام ، ثم بين أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وألا يشركوا به سواه ، وأنهم إن فعلوا غير ذلك حبطت أعمالهم وكانوا من الخاسرين ، ثم كرر النعى عليهم مرة أخرى بأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته ، إذ لو عرفوه لما جعلوا هذه المخلوقات الخسيسة مشاركة له فى العبودية .

الإيضاح

(الله خالق كل شىء) أى هو سبحانه الخالق للأشياء جميعا من خير وشر وإيمان وكفر بمباشرة المتصف بهما لأسبابهما ، وكلها تحت جبروته وقهره .

(وهو على كل شىء وكيل) أى وهو القائم على كل الأشياء يتولاها بحراسته وحفظه على حسب ما تقتضيه المصلحة ، فهى محتاجة إليه فى بقائها كما هى محتاجة إليه فى وجودها .

ثم فصل ذلك بعض التفصيل فقال :

(له مقاليد السموات والأرض) أى هو حافظ الخزائن ومدبرها ومالك مفاتيحها فله التصرف فى كل شىء مخزون فيهما .

والخلاصة — هو القادر عليهما والحافظ لهما .

أخرج أبو يعلى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عثمان بن عفان قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : « لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » فقال لى يا عثمان : لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك .

مقاليد السموات والأرض لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله ، وأستغفر الله الذى لا إله إلا هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن يحيى ويميت وهو حىّ لايموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير » وعلى هذا فالمراد أن هذه الكلمات يوحّد بها ويمجّد وهى مفاتيح خير السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه خيرهما

(والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) أى والذين كفروا بالأدلة التى وضعت فى الأكوان وجاءت فى القرآن ، دالة على وحدانية الله وعظيم قدرته وبديع حكمته — أولئك هم المغبونون حظوظهم من خيرات السموات والأرض ، لأنهم حرموا من ذلك فى الآخرة بخلودهم فى النار .

ثم أمر رسوله أن يوبخهم على أمره بعبادة الأصنام والأوثان فقال :

(قل أفغير الله تأمرونّى أعبد أيها الجاهلون) أى قل لمشركى قومك الداعين لك إلى عبادة الأصنام والقائلين لك : هو دين آبائك : أفتأمرونى أيها الجاهلون بعد مشاهدتى الآيات الدالة على تفرده سبحانه وتعالى بالألوهية — أن أعبد غيره ، والعبادة لاتصلح لشىء سواه .

روى عن ابن عباس « أن قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ويطئون عقبه (أى يغطون دعوته ويزيلونها) وقالوا هذا لك يا محمد وتكفّ عن شتم آلهتنا ولا تذكرها

بسوء ، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فنزل : « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » إلى آخر السورة ، ونزل (قل أفغير الله تأمرونّى — إلى قوله — من الخاسرين) » .

وعنه أيضا : إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة آلهتهم وهم يعبدون معه إلهه .

ثم حذر وأنذر عباده من الشرك فقال :

(ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) أى ولقد نزل عليك الوحى من ربك بأنه إذا حصل منك إشراك به عبادة صنم أو وثن ليبطلنّ كل عمل لك من أعمال الخير كصلة رحم وبرّ ببائس فقير ولا تنال به ثوابا ولا جزاء ولتكونن ممن خسروا حظوظهم فى الدنيا والآخرة ، وأوحى إلى الرسل من قبلك مثل هذا .

فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك ، وهذا كلام سيق على سبيل الفرض والتقدير لتهييج المخاطب المعصوم ، والإيذان بشناعة الإشراك وقبحه ، حتى لَيُنْهى عنه من لايكاد يفعله فكيف بغيره ؟ والحكم بحبوط عمل المشرك فى الآخرة مقيّد بما إذا مات وهو كذلك بدليل قوله فى الآية الأخرى : « وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

ثم رد عليهم ما أمروه به من عبادة الأصنام وأمره بعبادته وحده فقال :

(بل اللهَ فاعبد) أى لاتعبد ما أمرك به قومك ، بل اللهَ فاعبده دون سواه من الأنداد والأوثان .

(وكن من الشاكرين) لإنعامه عليك بما هداك من التوحيد والدعاء إلى دينه ، وما اختصك به من الرسالة .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وما قدروا الله حق قدره) أى ماعظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا غيره معه ، وهو العظيم الذى لا أعظم منه ، القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : «جاء حِبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يامحمد : إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » الآية .

وأخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه فى جماعة آخرين عن ابن عمر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » وهو يقول هكذا بيده يحركها يُقْبِلُ بها ويُدْبِرِ ، يمجّد الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرّنّ به » .

(والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) أى إن الأرض جميعاً تحت ملكه يوم القيامة يتصرف فيها كيف يشاء ، ولا يتصرف فيها سواه ، والسموات مطويات طى السجل للكتب بقدرته التى لا يتعاصى معها شىء ، وفى هذا رمز إلى أن مايشركونه معه فى الأرض أو فى السماء مقهور تحت سلطانه جل شأنه .

روى البخارى عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول: أنا الملك ، أين ملوك الأرض؟».

وقد علمت أن السلف يجرون المتشابه على ما هو عليه ، وأن الخلف يؤولونه ، والأول أسلم ، والثانى أحكم .

قال صاحب الكشاف : والغرض من هـذا الكلام إذا أخذته بجملته ومجموعه — تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لاغير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية أو جهة مجاز اهـ .

وقال سفيان بن عيينة : كل ما وصف الله تعالى به نفسه فى كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه اهـ .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع القدرة العظيمة ، والحكمة الباهرة .

وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِىءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠)

شرح المفردات

الصور : القرن ينفخ فيه ، صعق : أى غشى عليه ، ينظرون : أى ينتظرون ماذا يفعل بهم ؟ ، وأشرقت الشمس : أضاءت ، وشرقت : طلعت ، بنور ربها : أى عدله ، ووضع الكتاب : أى ووضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين ، بالحق : أى بالعدل ، ما عملت : أى جزاء ما عملت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عظمته تعالى بأنه خالق كل شىء وهو الوكيل على كل شىء ، وبيده مقاليد السموات والأرض — أردف هنا بذكر دلائل أخرى تدل على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، بذكر مقدمات يوم القيامة من نفخ الصور النفخة الأولى التى يموت بها أهل الأرض جميعا ، ثم النفخة الثانية التى يقوم بها الناس جميعا من قبورهم ، ثم الفصل بينهم للجزاء والحساب ، فتوفى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، وهو سبحانه العليم بأفعالهم جميعا من خير أو شر .

الإيضاح

(ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون) بين سبحانه ما يكون بعد قبض الأرض وطى السماء والنفخ فى الصور ، وإنما هما نفختان يموت الخلق فى الأولى منهما ويحيون فى الثانية بعد أن كانوا عظاما ورفاتا .

أخرج ابن ماجه والبزار وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا «إن صاحبى الصور بأيديهما قرنان يلاحظان النظر ؟ متى يؤمران » ؟

وروى أبوداود عن أبى سعيد الخُدْرى قال : « ذكر رسول الله صاحب الصور وقال : عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل » .

وليس فى القرآن ولا فى صحيح الأخبار مايدل على تعيين من استثناهم الله من الصعق والفزع ، ومن ثم قال قتادة لاندرى من هم ؟ .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » . وقوله : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً » .

وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ » .

(وأشرقت الأرض بنور ربها) أى وأضاءت أرض المحشر بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، ويبسطه من القسط فى الحساب . ووزن الحسنات والسيئات .

(ووضع الكتاب) أى وضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين كما قال : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » . وقال فى آية أخرى : « مَالِهَذَا الْكِتَابِ لاَيُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا » .

(وجىء بالنبيين) ليكونوا شهداء على أممهم كما قال : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلاَءِ شَهِيدًا » .

(والشهداء) أى الحفظة من الملائكة الذين يقيدون أعمال العباد خيرها وشرها كما يدل على ذلك قوله : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » . فالسائق يسوق للحساب ، والشهيد يشهد عليها .

و بعد أن بين أنه يحضر فى محفل القيامة جميع مايحتاج إليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات — بين أنه يوصل إلى كل أحد حقه كاملا غير منقوص ، ودل على ذلك بأربع عبارات :

(١) (وقضى بينهم بالحق) أى وقضى بينهم بالعدل والصدق .

(٢) (وهم لايظلمون) بنقص ثواب ولا زيادة فى عقاب ، ونحو الآية قوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . وقوله : « إِنَّ اللهَ لاَيَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » .

(٣) (ووفيت كل نفس ما عملت) أى وأعطيت كل نفس جزاء ما عملت جزاء كاملا .

(٤) (وهو أعلم بما يفعلون) فى الدنيا دون حاجة إلى كاتب ولا حاسب فلا يفوته شىء من أعمالهم ، ومن ثمّ يكون حكمه بينهم بالقسطاس المستقيم .

والخلاصة — إنما وضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء لتكميل الحجة وقطع المعذرة ، لا لحاجة إليها فى علم الله بما يعملون وما يقولون ، ثم جزائهم على ما قدموا من خير أو شر .

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٢) .

شرح المفردات

السوق : الحث على السير بعنف وإزعاج علامة على الإهانة والاحتقار ، والزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض ، والخزنة : واحدهم خازن نحو سدنة وسادن ، وينذرونكم : أى يخوفونكم ، حقت : أى وجبت .

المعنى الجملى

بعد أن شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الإجمال بقوله : « وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ » — فصل ذلك فذكر ما يحل بالأشقياء من الأهوال وما يلقونه من التأنيب والتوبيخ من خزنة جهنم على طريق السؤال والجواب التهكمى وهو أشد وقعاً على الأبىّ العيوف الذى تأبى نفسه الهوان والاحتقار .

الإيضاح

(وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا) أى وسيق الكافرون بربهم المشركون به الأصنام والأوثان إلى جهنم سوقا عنيفا، أفواجا متفرقة بعضها فى إثر بعض على حسب ترتب طبقاتهم فى الضلال والشر بزجر وتهديد ووعيد، كما يساق المجرمون فى الدنيا إلى السجون جماعات جماعات مع الإهانة والتحقير على ضروب شتى.

ونحو الآية قوله: «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» أى يدفعون إليها دفعاً.

(حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها) أى حتى إذا وصلوا إليها فتحت لهم أبوابها سريعا ليدخلوها، كأبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتى أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها، فتفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها أغلقت عليهم.

ثم ذكر سؤال الخزنة لهم على طريق التوبيخ والإهانة فقال:

(وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟) أى ألم يأتكم رسل من جنسكم تفهمون ماينبئونكم به من طاعة ربكم والاعتراف بوحدانيته وترك الشرك به، ويسهل عليكم مراجعتهم حين يقيمون عليكم الحجج والبراهين مبينين صدق مادعوكم إليه، وينذرونكم أهوال هذا اليوم؟

فأجابوهم معترفين ولم يقدروا على الجدل الذى كانوا يتعللون به فى الدنيا لوضوح السبل أمامهم، ولا سبيل حينئذ إلى الإنكار والجحود.

(قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) أى قالوا بلى قد أتانا رسل من ربنا فأنذرونا وأقاموا الحجج والبراهين، ولكنا كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة والضلالة، فعدلنا بسوء اختيارنا عن الحق إلى الباطل، وفعلنا الشر دون الخير، وعبدنا ما لايضر ولاينفع وتركنا عبادة الواحد القهار.

ونحو الآية قوله: «كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ».

وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف .

(قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أى قالت لهم الملائكة الموكلون بعذابهم: ادخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً لاخروج لكم منها ولا زوال لكم عنها .

(فبئس مثوى المتكبرين) أى وبئس المصير، وبئس المقيل لكم بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل .

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الأشقياء وما يلاقونه يوم القيامة من الأهوال — أردفها بذكر أحوال السعداء وما يلاقونه إذ ذاك من النعيم وما يقال لهم ومايقولون . ثم أخبر بأن ملائكته محدقون حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويعظمونه وينزهونه عن النقائص، وأنه سيقضى بين الخلائق بالعدل، وأن أولئك المتقين سيقولون: الحمد لله رب العالمين على ما تفضل به علينا وأنعم .

الإيضاح

(وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) أى وسيق المتقون إلى الجنة جماعة إثر جماعة على النجائب وفودا إلى الجنة، المقربون فالأبرار ثم الذين يلونهم ثم الذين

يلونهم ، كل طائفة منهم مع من يشا كلهم ، الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم .

والمراد بالسوق هنا الإسراع بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يُفعَل من يكرّم من الوافدين على بعض الملوك ؛ وبالسوق المتقدم طردهم إلى العذاب والهوان كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس أو القتل ، فشتان ما بين السوقين .

(حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) أى حتى إذا وصلوا إليها وقد فتحت لهم أبوابها ، كما تفتح الخدم باب المنزل للضيف قبل قدومه وتقف منتظرة حضوره فرحا بمقدمه — فرحوا بما أفاد الله به عليهم من النعيم ، وبما شاهدوا مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيُسْبِغُ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم وغيره .

وروى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درىّ فى السماء إضاءة » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فى الجنة ثمانية أبواب منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » .

ثم أخبر سبحانه أن خزنة الجنة يسلمون على المؤمنين فقال :

(وقال لهم خزنتها سلام عليكم) أى وقال لهم الخزنة : سلام عليكم من جميع المكاره والآلام ، فلا يعتريكم مكروه بعد ذلك .

(طبتم) نفسا مما أتيح لكم من النعيم المقيم ، وقد يكون المعنى : طبتم فى الدنيا فلم تدنسوا أنفسكم بالشرك والمعاصى ، وطاب سعيكم ، وطاب جزاؤكم .

(فادخلوها خالدين) أى فادخلوها ماكثين فيها أبدا لا زوال ولا فناء ولا تحوّل عنها.

(وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) أى وقال المؤمنون إذا عاينوا ذلك النعيم المقيم والعطاء العظيم فى الجنة: الحمد لله الذى صدقنا ما وعدنا به على ألسنة رسله الكرام، كما دعوا بذلك فى الدنيا وقالوا: « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقالوا: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ».

(وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء) أى وجعلنا نتصرف فى أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث، فنتخذ منها مباءة ومسكنا حيث شئنا.

(فنعم أجر العاملين) أى فنعم الأجر أجرنا على عملنا، وثوابنا الذى أعطيتنا.

(وترى الملائكة حافّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) أى وترى أيها الرائى الملائكة محيطين بجوانب العرش قائمين بجميع ما يطلب منهم، فيسمع لحفوفهم صوت التسبيح والتقديس، ويصلّون حول العرش شكرا لربهم وتنزيها له عن كل نقص.

(وقضى بينهم بالحق) أى وقضى بين العباد بالعدل، فأدخل بعضهم الجنة وبعضهم النار، أعاذنا الله منها.

(وقيل الحمد لله رب العالمين) أى وختمت خاتمة القضاء بينهم بالشكر للذى بدأ خلقهم وصوّرهم فأحسن صورهم، ومن له ملك السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات التى لا يعلم عدّها إلا هو.

وقد بدأ سبحانه هذه الآية بالحمد وختمها بالحمد، للتنبيه إلى تحميده فى بداية كل أمر ونهايته.

وقال قتادة : « افتتح الخلق بالحمد فى قوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ » واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى : « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين والمرسلين صلاة دائمة إلى يوم الدين .

مجمل مشتملات هذه السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .
(٢) الأمر بعبادة الله وحده والنعى على المشركين فى عبادتهم للأوثان والأصنام .
(٣) إقامة الأدلة على وحدانية الله .
(٤) طبيعة المشرك فى السراء والضراء .
(٥) ضرب الأمثال فى القرآن وفائدة ذلك .
(٦) تمنى المشركين الفداء حين يرون العذاب .
(٧) الوعد بغفران ذنوب من أسرفوا على أنفسهم إذا تابوا .
(٨) ما يرى على وجوه أهل النار من الكآبة والحزن .
(٩) ذكر أحوال يوم القيامة .
(١٠) وصف ذهاب أهل النار إلى المحشر وما يشاهدونه من الأهوال .
(١١) وصف ذهاب أهل الجنة وما يشاهدونه فيها من النعيم المقيم .
(١٢) بعد فصل القضاء يقول أهل الجنة (الحمد لله رب العالمين) .